الرواية: جزيرة الذكور

تأليف: عزيز بنحدوش

يوحي عنوان الرواية، أن أحداثا تدور رحاها على جزيرة لا يسكنها إلا الذكور، أو ليس للنساء فيها أي دور يذكر، تملأ ذاكرة من تعايشها في المكان الذي شهِدها، وتنطق الرواية مفصحة عنها بما يجعلها تتميز عما سواها بخصوصيات مميزة لجزيرة هي جزيرة الذكور. إلا أن قارئ الرواية و هو يتنقل على سطورها عبر فعل القراءة سيدرك، لاحقا عند متمها، أنه على نفس البعد الذي كان يفصله عن المكان تقريبا. تقريبا، لأن الجزيرة التي كان متلهفا لأن يُزج به فيها أو أن تلقي به الرواية على سواحلها، سرعان ما سيجد نفسه على جزيرة بدون شواطئ بعد ابتلاع الأرض لبحرها.

يستعمل الكاتب تعبير جزيرة الذكور في مقابل اسم مكان، و يربط العنوان بحدث لاروائي تذكره الرواية(ص 44)، وهو تعقيب السائح الإيطالي على الملاحظة التي أبدتها ابنته بخصوص ساكنة المكان الذي يزورانه، حيث قال: " لهذا سميت جزيرة الذكور ". يحمل هذا التعقيب إشارة إلى مبرر التسمية و إلى زمنها السابق عن الحدث و إلى مضمر مؤنث قد يكون في مخيلة هذا السائح جزيرة أو أي شيء آخر من قبيل مدينة أو قرية. هذا السائح لم يسم المكان، إنما برر تسميته التي يبدو أنها كانت شائعة التداول داخل المكان أو خارجه، بكون كل قاطنيه ذكورا رغم أنها مبنية على مشهد ضيق النطاق ولا يتسع إلا لما يمكن أن يملأ مجال نظر الملاحِظةِ ابنتُه. و مهما يكن من حال، إن كان هنالك ما يعلل ذكرانية الجزيرة من وجهة نظر إيطالية، فإنه لا وجود لما يوضح بأنها جزيرة. أقول لا يوجد في الرواية ما يوضح المبتدأ و لا المضاف في تعبير "جزيرة الذكور" من وجهة نظر الراوي، و إن كان يبدو مقتنعا بوجهة النظر الإيطالية، فهو يقول من جهة "هنا، **النساء أشباح كأطفال** موحى (ص44) " للتوكيد على أن ما يرى على الجزيرة هم الذكور، و يقول من جهة أخرى "أصبحنا اثنين، نحن وهم، رغم أن الوطن واحد وجزيرة

الذكور هذه **محدودة بالبحر** (ص 10)"، موحيا بأن الجزيرة هي جزيرة بالفعل.

ما الذي حمل الكاتب على ذكر حدث (الحدث المرتبط بالسائح الإيطالي) لا تربط الفاعلان فيه أية صلة بشخوص الرواية بما فيهم الراوي، الأمر الذي يجعل الحدث منعزلا و لاروائيا؟.

قبل سرد الحدث، يقر الكاتب من خلال استنتاج و مفارقة غير واضحة، بأن الأماكن هي جزيرة الذكور، فهو يقول "هي الأماكن **إذن**[1]، أثر دال على الأمس القريب المليء بالمجد، **أما الآن** فهي جزيرة الذكور (ص 44)"، إلا أنه بوضعه الأماكن موضع نزاع بين كونها من البقايا والعلامات الشاهدة على ظرف زماني(=أثر دال على الأمس) و بين كونها جزيرة الذكور (=أما الآن فهي)، يكون اللغز المكاني الذي تحدث عنه (= صادق كل من أمده بمعطيات تفسر لغز المكان(ص 42)) لا زال في حاجة إلى تفسير، إذ اللغز هو المكان وهو جزيرة الذكور. لهذا سيلتمس في قصة السائح الإيطالي ما قد يبدد به الغموض الذي يكتنف اللغز الذي هو جزيرة الذكور(= **لهذا** سميت جزيرة الذكور). وسيضيف بعد ذلك حديثا عن النساء قائلا " هنا، النساء **أشباح** كأطفال موحى (ص 44)" لإضفاء دلالة على كلام سابق (= كلهم ذكور ص 44). ويقول في مكان آخر (ص 29) " أدرك إدريس أنه لم ير نساء في جزيرة الذكور هذه، اللهم بعض الموظفات اللواتي لا يختلفن عن الذكور كثيرا."

يقول السائح الإيطالي ضمنيا بأن المكان **كان** يسمى جزيرة الذكور، فيما يعتبر الراوي أن المكان هو **الآن و الآن فقط**، جزيرة الذكور، باعتبار أداة التقرير و الحصر "أمَا" في قوله "أما الآن فهي جزيرة الذكور" التي أراد بها نفي هذه الصفة عن الأماكن **بالأمس**، غير أنه وهو يفعل ذلك ينفي الصفة عن الأماكن فيما يعتبره الآن(=الأماكن **أثر دال** على الأمس القريب المليء بالمجد)، إذ كيف يمكن للأمكنة أن تكون ذات دلالة خارج الآن؟.

[1] حرف جواب و جزاء لكلام سابق

في (ص 42 43) يقول الراوي:" كانت الأرض هنا نقية كالبَرَد ... كم كنت عظيمة أيتها القبائل ... أحلامكم على نواصيكم، عزة النفس زادكم ... قال إدريس ... هناك ذاكرة و **أثر دال** على قوة الحضور الذي يريد موحى إزالته ... أدركت منكم **علي وكان آخركم** ...". الأثر الدال هنا يرتبط بالذاكرة، حية كانت أو ميتة، خاصة ما له علاقة بما يريد موحى إزالته، أما الأثر الدال أعلاه فيرتبط بالأماكن، و ليست الذاكرة و الأماكن بالشيء الواحد. تتكلم هذه الفقرة من الرواية عن **مجد** كان ورحل عن المكان ولم يبق له أثر، إذ كل ما تبقى هو علي، وعلي لوحده لا يمكنه صنع الأمجاد، لهذا فإن أداة الحصر في القول "أما الآن فهي جزيرة الذكور" إنما هي تحصر المجد المتواجد في مخيلة الراوي، والذي يتعايشه في قرارة نفسه(= أشم رائحة القدماء، أرى الآن وجوههم، ...ص43)، عن المكان الذي أصبح من جراء ذلك جزيرة للذكور. قد يقال، إنما الذي يحدث له أن يرى وجوه القدماء ويشم رائحتهم و يسمع أصواتهم إنما هو إدريس وليس الراوي، لكن القول المسند لإدريس في الفقرة أعلاه و في غيرها من الفقرات الكثيرة هو قول مضاف إلى قول الراوي بغية دعمه، إذ ليس هناك أي شخص من شخوص الرواية مُوجه له قول إدريس، وبالتالي فإن صوت الراوي و صوت إدريس هو صوت واحد، و ما يقوله إدريس إضافة لما يقوله الراوي.

و الواقع في الرواية، سواء أكانت واقعية أو تخيلية، أن صوت الشخوص هو صوت الراوي الذي يكيفه حسب الشخصية التي يتعاطى معها و يتخذها وسيطة للإبلاغ عن حدث، هو في الحالة الواقعية، حدث سحبه الزمن و لم يبق منه إلا ما تحتفظ به ذاكرة الراوي.

يورد الكاتب لفظة جزيرة الذكور في مواضع كثيرة للإشارة إلى مكان، ففي مستهل الكتاب يذكر أن دوار تمغلدت تابع لحوض جزيرة الذكور (ص 6 ف 2). و جزيرة الذكور، أو مدينة الجنوب (ص14 ف1)0. هي المكان الذي حل به إدريس حاملا كل ممتلكاته (ص7 ف 2)، وبحث فيه عن منزل للإقامة (ص7 ف3)، وحيث قطعة خبز ترادف قطعة كيك (ص9 ف 4)، وحيث كان عليه الإجابة عن أسئلة الناس و هو يبحث عن دار الحاتمي للعلم والمعرفة

(ص10 فـ1) التي عين فيها أستاذا لمادة الفلسفة (ص 6 ف 4) والتي أدمى بابها جبينه كما فعل من قبل باب الغرفة التي أقام بها بفندق حسن.

تعني جزيرة الذكور في هذه المواضع من الرواية تازناخت المدينة، لكن مجال الجزيرة يتسع في أماكن أخرى من الرواية ليشمل القبائل التابعة لتازناخت أي تازناخت الكبرى. إذ العودة من الرحلات الاستكشافية التي كان يقوم بها إدريس ومرافقيه في المنطقة كل يوم أحد، كانت تتم باتجاه **مركز** جزيرة الذكور (ص18 19) والذهاب كان يتم انطلاقا منه، كما أن السوق الأسبوعي في جزيرة الذكور يعقد يوم الجمعة، وهو سوق يأتيه الناس من كل المناطق المجاورة (ص 24 فـ2)، و بها قبائل (ص43 ف 4) من بينها قبيلة أيت أسمان و دواوير مثل تسليت (ص18) و تمغلدت (ص6 39 43 48).

يستعمل الراوي لفظة الجزيرة في مقابل أمكنة أخرى. يقول الراوي: " حضر- بمناسبة يوم عيد الفطر - كذلك من هاجر من أجل لقمة العيش في **الجزر** الأخرى القريبة و البعيدة (ص 94 فـ3)"، ويقول: " عندما يكون الإنسان وزيرا للفلسفة في جزيرة الذكور و **الجزر** المجاورة الأخرى (ص50 فـ3)". فالمشهد إذن، و نقطة النظر تبتعد، يتسع ليشمل أرخبيلا بكامله.

لقد سبق القول على أن جزيرة الذكور اسم مركب يستعمله الراوي بديلا لاسم مكان لا يذكره صراحة و إن كانت الرواية حافلة بالإشارات التي تجعل المكان يصيح صارخا باسمه و فاكا عقد شبكة قد تنحو خيوطها إلى وجهات خاطئة . ليست هناك في استعمال الدال، جزيرة الذكور، رمزية تتعدى الإشارة إلى المكان مسرح أحداث الرواية الذي هو مدلوله. إلا أن الدال ذاك، وهو ينفك عن مدلوله، يستقل بذاته في عزلة، لا وجود له بسببها إلا لذاته، ولا يمكنه أن يوجد لما سواه إلا بإنشاء علاقة ثنائية أو متعددة الأطراف يدل من خلالها على شيء ما هو مدلوله. جزيرة الذكور، هذا الرمز اللغوي الذي و إن كان يشير إلى مكان بعينه، فإنه يحمل من الإشارات ما يجعله يضيف إلى المكان معان أخرى. جزيرة الذكور إشارة في اتجاهات مختلفة، و رمز مركب لا يَظهر المكون المكاني فيه إلا كخلفية للمكونات الأخرى، أو إلا من خلال نظارة المكونات الأخرى. المكان أحمر خلف زجاجة تنتقي الضوء الأحمر.

الإشارات لا معنى لها(خارج ذاتها) بدون ما تشير إليه عن بعد، أما الرمز فهو كينونة قائمة الذات و قد تصدر عنه إشارات إلى ترابطات تجمعه بغيره(عن قرب) وتبين موقعه وسطها(الإشارة رمز في حد ذاتها).

تشير جزيرة الذكور إلى جزيرة و ذكور و بحر، و من هنا إلى مناخ و طقس و نمط حياتي و فحولة و صراع و جنس و تنافر و تجاذب و سفن وشواطئ و مد و جزر و أمواج و سمك و صيد و اللائحة قد تطول.

مدينة الضباب، مدينة الأنوار، قرية الصيادين، مدرسة المكفوفين، جزيرة الإناث، (...). جزيرة الذكور و حدة تعبيرية لغوية، قد لا تفيد مع إبطال سحر اللغة و مفعول الإشارات، أكثر مما تفيده، على مستوى آخر، جملة قرية الصيادين. جزيرة الذكور عنوان ملصق برواية، و منه، هي أولا إشارة إلى رواية و منها إلى أشياء أخرى. أشياء مرتبطة بمضمون الرواية، وأخرى بالراوي من حيث كون الرواية صادرة عنه.

لعل فعل الكتابة بمثابة بذرة، تختلط بعناصر أخرى، فتصبح جذورا و نبتة، وقد تكبر فإذا بها شجرة عظيمة. العمل الإبداعي قد يبدأ من مجرد فكرة، بسيطة أو معقدة، يؤصلها المبدع في وسط تصوري وينميها فإذا بها تتفرع و تتعاظم. من هذا المنطلق يطرح السؤال: هل هناك نواة روائية يمكن أن تكون منطلقا للرواية؟.

من الصعب الإجابة عن هذا السؤال. فهو لا يتعلق بما تتحدث عنه الرواية فقط، و إنما بما أنطق الرواية وجعلها تتحدث عما حكت عنه بكيفية و منطق بالذات، ذلك أن ما تناوله الراوي ليس هو بالضرورة ما استخلصه القارئ، و ما يراه هذا القارئ حدثا أساسيا قد لا يكون في نظر قارئ آخر إلا حدثا ثانويا. لكن يمكن القول، بالنظر إلى طبيعة الرواية، أنها تُزاوِج بين كونها عبارة عن ذكريات أحداث عاشتها الشخصية إدريس و يحكيها الراوي، و بين كونها مجموعة من الخواطر التأملية في تلك الأحداث.

يمكن تقسيم الكتاب إلى أربعة أجزاء، حسب الأحداث التي تناولتها الرواية و الأشخاص الفاعلين فيها، و باعتبار تلك الأحداث محطات مستقلة من حياة

إدريس، ليس من حيث كونها طبعت شخصية إدريس بخصوصيات معينة، ولكن من حيث انعدام التأثير لحدث في الأحداث الأخرى. طبعا، تذكر الرواية أحداثا لا أهمية لها، لأنها لا تؤثر على ما جاءت به الرواية، و لأنها عابرة أو اعتيادية في حياة الأشخاص. مع اعتبار إعادة ترتيبها بفك التداخل فيما بينها و كسر النفس السردي الذي جاء بالرواية دفعة واحدة:

1. جزء خاص بالمرحلة الأولى لمقام إدريس بما يسميه الراوي جزيرة الذكور.
2. جزء خاص بالحياة العملية لإدريس
3. جزء خاص بالعلاقة بين إدريس و ما يسميه الراوي وزير الفلسفة
4. جزء خاص بموحى

ويمكن إضافة جزء خاص بالراوي، إذ له في الرواية حضور وفعل غير رواية الأحداث وتقديمها، وله بالشخصية الروائية إدريس علاقة يدل عليها استعماله في أكثر من موضع لضمير المتكلم. فالحديث عن المكان و تاريخ المكان بنوع من الانطباعية التمثلية، و نوع آخر من التجاوز لما يمكن، بل يفترض، أن يكون المكان باعتباره أحد المكونات الأساسية لبنية الرواية أي ذلك المكان الذي تدور فوقه أحداث الرواية وتدوس فوقه أقدام الشخوص الفاعلين فيها. و هو التجاوز الذي أعطى المكان امتدادا مفرطا وأكثر مما تتطلبه أحداث الرواية، ثم بعدا زمانيا أبعد و أكثر سعة مما يمكن تسميته زمن الرواية أي الزمن الذي تتحدد فيه أحداث الرواية. هذا، ناهيك عن ما يتضمنه الكتاب من محتويات يربطها الراوي بالشخصية إدريس أو بنفسه، و لكنها خارجة عن الفعل الروائي و إن كان هذا الفعل يسعى إلى بناء الشخصية الروائية، لأن فعل البناء ذاك، مع اعتباره موجودا، يمس القارئ بشكل غير مباشر و من مناحي عديدة.

من الصعب تحديد زمان وقوع الأحداث و الموقع الذي يحتله حدث بالنسبة لآخر. هناك زمان سرد الأحداث المرتبط بالرواية و الذي ينساب مع تقدم عملية السرد بالنسبة للراوي، و مع تقدم فعل القراءة بالنسبة للقارئ؛ لكن ليس هناك زمن لتحديد الأحداث. وليس حال المكان بالمختلف عن حال الزمان، إذ

الحضور المكاني يكاد ينعدم إن تم استثناء حضوره الضمني. الزمان والمكان مكونان هامان من مكونات الرواية، و يمكن القول بأن الواقعية في الفعل الروائي لا تكتسب من كون الأحداث الروائية حدثت بالفعل و إنما من كون تلك الأحداث توافق و تتناسب مع الزمان و المكان المرتبطين بها، ذلك أن مكونات الحدث تحتل موقعا خاصا في المكان و في الزمان و لا يصح النظر إلى الحدث إلا في ذلك المكان و ارتباطا بذلك الزمان، لأن النظر إلى الحدث في ذاته، أي في مكان و زمان مجردين، هو نظر إليه في بيئة مغايرة وسط مكونات تفترض ارتباطات و علاقات أخرى قد لا يسمح بها الوسط الأصلي للحدث.

تتأثر العملية السردية بالحدث، فالحدث في واقعيته يسعى إلى الاكتمال و يفرض على السارد المرافقة والتتبع، أما الحدث المجرد فهو حدث مكتمل و مندمج و على حال من الأحوال في ذاكرة السارد، لِما قد يكون لحق به من عناصر ذاتية، أو ما قد يكون سقط منه من الشروط و الظروف التي أنتجته.

في الفقرة الأولى من الرواية، يستعمل الراوي الزمن المضارع مقترنا بأداة جزم نافية لمعرفة إدريس بمصير الأمور التي جرت في ماضيه. يقول الراوي: " لم يكن إدريس يعرف أو حتى يتوقع ما ستؤول إليه الأمور ..."، لإدريس وجود حاضر، و نفي علمه بالأمور المستقبلية هو نفي لها في الماضي المنسوب لحاضر إدريس الذي قد لا يكون هو حاضر الراوي. يتابع الراوي معرجا على زمن آخر فيما يبدو أنه انقطاع زماني: " لا علاقة للاسم بمولاي إدريس زرهون، ولم يكن إدريس هذا، اسما مرصعا ...". انقطاع زماني و مكاني يفصل بين إدريس و مولاي إدريس، ويستحيل معه تواجد علاقة بينهما؛ غير أن علاقة بين إدريس و مولاي إدريس تظل قائمة على مستوى الاسم، إذ كيف يمكن الحديث عن مولاي إدريس دون أن تكون هناك علاقة بينه وبين إدريس؟. هنالك علاقة إسمية واضحة بين الشخصيتين، وقد تكون هناك علاقة أخرى، مبنية في فكر الراوي على اعتبارات غير ذاتية، بالرغم من التباعد المكاني و الزماني بين الشخصيتين. هذا التباعد تقلص إلى حدود سمحت باستحضار الشخصية التاريخية جنبا إلى جنب مع شخصية روائية، بفعل التحييد الذي لحق العامل الزماني والمكاني المرتبط

بالشخصيتين، و هو الأمر الذي يدفع إلى التساؤل حول ما إذا كان الراوي و هو يتأمل الشخصية الروائية إدريس كان يتأملها وهي على مسرح من مسارح المكان الحامل لأحداث الرواية؟.

تبدأ الفقرة الأولى من الرواية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بتصور لماضي إدريس النسبي للحاضر الذي يعتبر فيه الراوي إدريس، فإدريس الحاضر في مخيلة الراوي، له ماض خال من القدرة على التنبؤ بالأمور المستقبلية التي تخصه، بل له في هذا الماضي كينونة (= لم يكن إدريس...) تجهل مصير الأمور التي أصبح يتعايشها في حاضره. هذه الأمور كامنة على مقربة من إدريس كما يتصوره الراوي، أو لنقل توجد في الظل والراوي يستحضر إدريس. وبطبيعة الحال، لا يستحضر الراوي المكان الذي يجعله ينظر إلى إدريس عن بعد و لو على مستوى التصور، و إنما يستحضر المحدد الزماني الذي يجعل النظر إلى إدريس كما لو أنه كان نظرا في الذات باعتبار أن الماضي هو منسوب إلى حاضر غير محدد بالنسبة للراوي، و يمكن اعتباره بالتالي حاضر الراوي.

في الفقرة الثانية من الرواية، المكان و الزمان مجردين، ذلك أن أي مكان وأي زمان ماض يمكن ربطه بمضمون الفقرة، بل إن المكانين المذكورين في هذه الفقرة، خصوصا المكان المسمى جزيرة الذكور، يصعب ربطه بالمكان المذكور في الفقرة الثالثة التي يبدو أنها تقدم وصفا للمكان. فإدريس يمكن أن يجد نفسه على مرمى حجر من الشيخ السبعيني و مدير مجموعة مدارس تمغلدت التابعة لجزيرة الذكور، ليس بجزيرة الذكور فقط، بل حتى في جزيرة الإناث.

لا تقدم الفقرة الثالثة وصفا للمكان. فهي تبدأ بمعطى حسي (= الحر شديد) و بانطباع عن المكان (= شبه مهجور، عار من الناس، عالم بلا خرائط، أرض فارغة من الناس)، ثم عن الناس (= جلابيب في كل مكان)، وبعد ذلك تقدم معلومات حول إدريس و المكان (= وسائل نقل غير اعتيادية، لغة غير لغته، لم يكن يعرف بوجود المكان، و لا أن يعترض على وجودها). هذه الانطباعات الحسية و الذهنية هي انطباعات الراوي عن المكان، ليس الهدف

منها هو جعل القارئ في الجو العام الذي يسود المكان، لأن في هذه الفقرة لا حدث يدور في المكان و يستوجب التأثير على القارئ بإضافة الانطباعات الحسية التي تتجاوز بما تعبر عنه مجرد الانطباع إلى ما هو حالة نفسية يستوجبها الفضاء المكاني (= الحر شديد و المكان شبه مهجور) القاسي بحره و المخيف بخلوه من الناس و الباعث على التيه (= عالم بدون خرائط). المكان شبه مهجور و عار من الناس، لكن الجلابيب في كل مكان، و إذ الجلابيب في كل مكان، فهي تملأه و بالتالي فالمكان ليس مهجورا و لا عار من الناس و إنما متخفين في الجلابيب و قد فُعل بهم ما يفعله الفنان بضربة من فرشاته وهو يجسد مشهدا من الحياة العامة. الجلابيب في كل مكان، لا شيء يميز هذا عن ذاك، الأشباح واحدة. بين المكان المهجور و الجلابيب المالئة للأمكنة لا يوجد تناقض مذكى بتواجد لغة هي اللغة الأصلية لإدريس، لكن تغيرا في الرؤية، استوجبه الانتقال من الانطباعات الحسية للراوي إلى مدركات إدريس حول المكان أو الانطباعات الذهنية للمكان عند إدريس. ليس حال إدريس في هذه الرؤية بأفضل من حال الناس الجلابيب، لأن النظرة هي نظرة في الذات و ليس خارج الذات.

الأرض عالم بلا خرائط هنا (ف 3)، و هنا اسم إشارة للمكان القريب الذي يتواجد فيه الراوي أو يشير إلى موقعه، غير أن الإشارة هذه، إشارة أيضا، إلى أن الموقع المشار إليه له زمانيا نفس الإحداثية و الراوي، بمعنى أن الراوي يتعايش الأجواء المكانية (= الحر شديد ...)، إلا أنه ينتقل فجأة إلى زمن الماضي و هو يتحدث عن إدريس (الأرض عالم بلا خرائط هنا، لم يكن يعرف، حتى بوجود هذه البقعة من الأرض على الأرض) بما يمكن اعتباره تبريرا لجهل إدريس بتواجد هذه الأرض، و أيضا عنفا يكمن في الانتقال من الذات إلى الآخر. هو العنف نفسه الذي يظهر في الفقرة الأولى (= لم يكن إدريس يعرف ...، لا علاقة للاسم بمولاي إدريس زرهون، و لم يكن إدريس ...) و الذي يكمن في تكسير العملية السردية بالانتقال الفجائي بين الأزمنة، و المتجلي في إقحام الذات (= الراوي) في سياق خاص بالغير أو في إقحام الغير في سياق يخص الذات.

وصول إدريس إلى الأرض التي لم يكن يعلم بوجودها و التي جاءها حاملا كل ممتلكاته على ظهره، يرفقه الراوي بتقرير حول المكان (= المحطة فارغة، فضاءات ممتدة بلا هوادة، كثافة سكانية ضعيفة)، ويضيف إليه ملحقا (= الأرض جرداء إلا من بعض البنايات، فنادق، ...، والكثير من الأعين التي تلاحق إدريس). في هذا التقرير نوع من استباق الأحداث، و كأن الراوي جال في المكان قبيل وصول إدريس إليه، فالحديث عن الكثافة السكانية يعني معرفة بالساكنة خصوصا خارج المحطة التي ليس بها عادة سكان، ثم هناك داع للتساؤل حول ما إذا كان إدريس قد حل في المكان قادما إليه على رجله أم عبر وسيلة من وسائل النقل، و مدعاته هو الحديث عن المحطة الفارغة تزامنا مع الحديث عن وصول إدريس المسبوق بإقرار حول مجيئه حاملا كل ممتلكاته على ظهره(= جاءها حاملا كل ممتلكاته على ظهره ...)، و المتبوع بإنزال إدريس لحقيبته الظهرية ليستريح منها، و هو ما يعني أن إدريس حتى و لو كان ممتطيا وسيلة للنقل كانت حقيبته على ظهره. سؤال آخر يطرح نفسه، هل وصل إدريس إلى المحطة أول ما وصل؟ ثم هل كان الراوي بالمحطة عندما وصل إدريس؟ الواقع أن الراوي كان له نوع من الحضور في المحطة، نوع من الحضور مثل الحضور الذاتي أو الحضور المعنوي و هو يجمع أطراف مشهد يتخيله هو، لكن ما معنى أن تكون المحطة فارغة و إدريس قد وصل إليها توا؟ ألم يكن الراوي يستحضر أنه وضع شخصا هناك يعمر المشهد؟.

لم يكن الراوي يرى بعيني إدريس، و لا هو يرى بعيني الراوي، و لكن إدريس سقط في نقطة لا مرئية تاركا المكان للراوي وحده و الذي سرعان ما سيعود إلى إدريس مستطردا: " نظر شرقا ثم غربا، ...، أنزل حقيبته ...، انسحب يبحث". هذا مشهد في المكان، الراوي ينقل عن بعد ما يراه، بل يبدو أنه يتتبع إدريس و ينقل المشاهد. يتضح هذا من خلال الأفعال الحركية التي يستعملها الراوي، مثل: لاحق، صعد، عاد، حمل، أقحم، ...، لكن التباعد بين الراوي و إدريس يقابله أيضا نوع من التقارب المعبر عن حالات نفسية و ذاتية خاصة بإدريس، و المعبَر عنها بعبارات مثل: لم يكن يعرف، لم يكن قادرا، الحزن، الغربة، البحث في الذاكرة، لم يعد يتذكر،...

" خرج إدريس حاملا أدوات العمل، لم يعد يتذكر، هل بالقدم اليمنى أم اليسرى ...(ص14 ف1)". يبدو من خلال هذا المقطع من الرواية، أن الراوي يقص ما يحكيه إدريس له، و هذا يعني أن إدريس، هذا، شخصية خارج الرواية و داخلها، خارج الرواية مثله مثل الراوي، و داخل الرواية مثله مثل الراوي أيضا. فالراوي ينقل لاحقا (ص17 ف1) ما يلي:" أتذكر كثرة حضور المرآة في الدرس الفلسفي ... عدنا، لكن ليس كما كنا ..."، " سألت إدريس يوما عن ...(ص43 ف4)"، " لم يكن بإمكاننا أن نمر ... (ص71 ف4)"، ...

العبارة " لم يعد يتذكر"، تعني أنه كان يتذكر خروجه وقبل ذلك انطلاقه منصرفا من اجتماع للأساتذة بالمدير عند مستهل سنة دراسية و بعد ذلك شروده و ارتطام رأسه بباب الدار، و بالتالي فإن فعل التذكر هذا هو فعل يهم أحداث الرواية وسردها و ليس حالة عرضية تلبس نفسية إدريس، و منه يمكن اعتبار إدريس بمثابة الشخصية الراوية.

" أتذكر كثرة حضور المرآة في الدرس الفلسفي الإدريسي، ....، أول الدروس كان حول الإنسان و كذلك كان آخرها (ص17)". العودة للذاكرة الذاتية للراوي، و منها أتى على وجه الإجمال ليس بذكرى واحدة، و إنما بذكريات عديدة قاسمها المشترك حضور المرآة، تلك المرآة التي جاء بخصوصها لاحقا " كلما نظر لنفسه في المرآة و بحث عن الأستاذ بداخله، لم يجد إلا إدريس بن إيدار الكدميوي(ص22)". أكثر دلالة من مجرد التذكر هو التعبير "بدأنا من البدايات، من أنت ...(ص16)"، الذي يجعل الراوي محل الأستاذ إدريس.

يمكن عند هذه الحدود استنتاج أن الرواية عبارة عن مذكرات شخصية، أو ذكريات يرويها الراوي من خلال شخصية إدريس. و ليس القول بالذكريات بالدال على أن تلك الذكريات هي بالفعل ذكريات خاصة بالراوي، فمن الممكن أن تكون ذكريات إما للراوي وإما لإدريس حتى مع احتمال ابتداعها، ذلك أن الرواية منسوجة حول إدريس بالكامل تقريبا، أو بشكل أدق يشكل إدريس في الرواية، ذلك الجسم المتحرك الذي يعبر الرواية من أولها لآخرها تقريبا، فهو لا يختفي إلا ليظهر الراوي و لا يظهر إلا ليختفي الراوي وراء السارد.

ليس هناك في الرواية فعل بنائي للشخصيات؛ فالراوي هو الذي يَعرِف شخصياته و يتحدث عنها، ولا يمنحها الفرصة للتعريف بنفسها من خلال أفعالها التي تبرز شخصياتها وهي تعيش الوضعيات التي يقحمها الراوي فيها.

(...)

يتبع

لعيوني عبد الكريم

فالشخصية إدريس

تعرض الرواية في الجزء الأول المحدد بين (ف1ص6 و